العرابة المدفونة

ومدفن المعبود اوسيرس فيها

العرابة المدفونة انقاض مدينة من اقدم المدن المصرية واجلها آثاراً تعرف بابيدوس . واسمها المصري القديم ابوت او ابتو جرتهُ اليونان الى ابيدوس اسم مدينة لهم في اسيا الصغرى عند مضيق الدردنيل وذلك لشدة الشبه بين الفظين . اختطها المصريون الاقدمون قبل عهد الملك مينا اي منذ اكثر من سبعة آلاف سنة واتخذوها مباءة لملوكهم ودفن فيها ملوك الدولة الاولى وبعض ملوك الدولة الثانية . ولم يزل الفراعنة يزمونها ويجددون بناءها حتى عهد الدولة الثلاثين وبقي بعضاء مصر ونوابغها يدفنون فيها بلا انقطاع

واحتفر فيها سنوسرس الثالث احد ملوك الدولة الثانية عشرة مدفناً كبيراً في الصخر . واقام سنى الاول احد ملوك الدولة التاسعة عشرة هيكلاً فخماً الى الجنوب منها لملوك الدول الاولى ولم يكن بناؤه الا في عهد رعمسيس الثاني الذي اقام هيكلاً آخر اصغر منهُ . والحق منفتاح بهيكل سنى مقاماً لاوسيرس تحت الارض . وآخر ما اقيم فيها من البناء الفخم هيكل امامهُ مختلف من ملوك الدولة الثلاثين . وبعد ان تولى البطالسة ملك مصر اهمل ترميم ابنيتها ولم يقم فيها بناء جديد

هذا مجمل ما عرف من تاريخ هذه المدينة ذكرناهُ تمهيداً لفهم ما يأتي فقد شاع في العالم الماضي ان مدفن اوسيرس معبود المصريين الاقدمين كشف فيها ثم عثر على خطبة للسير اشيل في هذا الموضوع فاقتطفنا منها ما يلي

كانت ابيدوس مدينة عظيمة مشهورة في اوائل عهد التاريخ المصري ولكنها لم تبلغ شأو طيبة ومنف من العظمة السياسية ولم تكن مهمة الا من الجهة الدينية فقد كانت موطن المعبود اوسيرس كما كانت اون او عين شمس المصرية موطن المعبود توم هرماخس . وكان اوسيرس يلقب بالساكن في ابيدوس . وسر امتياز من سائر المعبودات المصرية بانهُ لا يمثل قوة او مظهراً من قوى الطبيعة او مظاهرها بل هو شخص متصف باوصاف ادبية وهو عندهم الله الموتى الذي يدينهم في ابيدوس . وكتاب الموتى يمثلهُ جالساً على عرش وبين يديهِ آلهة الجهات الاربع الذين يتدرون استحقاق الناس ويزان فيهِ قلب الانسان وهذا الانسان يستشفع الذين وارجين الهُ ويستشهدهم انهُ لم يقترف اثماً من الآثام

الميتة وهي اثنان واربعون . على ان هذه الديمونة تكون في ايبدوس السماوية لا ايبدوس الارضية فقد كان المصريون يعتقدون ان لايبدوس وهليو بوليس وبوصيرس مدينة نقابلها في السماء كما ان لكل انسان نفساً او مثلاً او نسخة منهُ تعيش في العالم الثاني

ومن الامكنة التي تجاور ايبدوس ويرد ذكرها كثيراً في الكتابات القبرية روزتو وهي مدخل العالم السفلي ولعلها ثغرة من الثغرات التي ترى في الجبال الفاصلة بين العمارة والصحراء غربي ايبدوس

ويمثَّل اوسيرس بهيئة انسان واكثر ما يرى قابضاً على محجن ومراوة من المراوات التي يضرب بها القمح ليفصل عن سنبلهِ . ولهُ زوجة في ايبدوس وابن وهو هورس . والراجح ان اعتقاد هذه السذات فيهِ نشأ في الدلتا اي الوجه البحري من القطر المصري وكان اعتقاد اهل ايبدوس بهِ في ايام الدول الاولى يختلف عن ذلك

ولم يكن لايبدوس اهمية سوى من الوجهة الدينية كما تقدم وهي قديمة جداً تذكر في مطلع عصر التاريخ المصري . وقد ذكر مانيثو الكاهن المصري الذي نظم اسماء الملوك المصريين في جدول يوناني وذكر فيهِ تاريخ كل منهم ان مينا اول ملك يعرفهُ التاريخ غادر عاصمتهُ ثيس في اواسط مصر واقى راس الدلتا فاختار مكاناً حوَّل عنهُ مجرى النهر الى الشرق وبنى فيهِ عاصمتهُ الجديدة منف

وكانت ثيس هذه قريبة من ايبدوس وقد حقق الاثريون ان موقعها اكة تعرف الآن بالبربة . وكانت ثيس من اهم اركان الدولة في المملكة الجديدة . ولعلها كانت العاصمة السياسية والمدنية للكورة المحيطة بها ثم تغلبت عليها ايبدوس واخذت عظمتها

والادلة الاثرية تثبت رواية مانيثو ان اصل ملوك الدول الاولى من ايبدوس . واقدم ما عرف من الآثار المصرية واقع فيها وفي جوارها وهي الانقاض الباقية من عهد الدول الثلاث الاولى وكلها تدل على ان الملوك كانوا يدفنون مدافنهم في ثيس

وعلى مقربة من الجبال التي هناك على نحو ميل من الارض المزروعة اكة يسميها الاهلون بام القعاب لكثرة ما فيها من كسر الخزف او قعاب الخزف وقد اكتشف فيها ابنية من اللبن في وسط كل منها قاعة على جانبيها غرف تفضي اليها . ووجد في هذه الغرف قوارير واثاث والواح حجرية من نوع الصفاح وادوات من الصوان وكثير من الآثار غير هذه فاتضح لنا منها مدنية الدول الثلاث الاولى . ومن اهم ما عثر عليهِ فيها اسماء الملوك في العالم

الآخر او بالحري اسماء اشبههم او اشبههم العائشة فيه

ويطلق على هذه الاخربة اسم القبور وانا لا اوافق على ذلك لان الملوك لم يكونوا يدفنون في القاعات التي كانوا يعبدون فيها بل في غرف محاذية لها . ولكن اذا كبرت قاعة من هذه القاعات حتى صارت هيكلاً كبيراً كهيكل رعمسيس في الدير البحري دفن فيه اعوان الملك وكل من انتسب اليه في حياته لان هؤلاء الاعوان يعدون ذلك فخراً لهم ولانهُ هو يود ان تحيط تفوسهم بنفسه في العالم الآخر

وعندي ان السبب الرئيسي الذي جعل ملوك الدور الاولى يقيمون معابد لانفسهم في ابيدوس هو ان معبودهم اوسيرس دفن فيها الا انهُ لم يعرف باسم اوسيرس في ذلك الحين بل كان اسمهُ على ما في اقدم الكتابات ابوات اي معهد السبل او الدليل . وكان يمثَّل في الغالب على هيئة حيوان من نوع الكلب اي بصورة تقرب ان تكون صورة ابن آوى او كلب او ذئب او ثعلب . وكانوا يصورونهُ كذلك على اعلامهم . ثم تغير اسمهُ وبقيت هذه الحيوانات تعد مقدسة في ابيدوس حيث عثر على آلاف منها محنطة

ومن المحتمل انهُ كان لابوات معبد بالقرب من هيكل اوسيرس الذي نراه الآن . وكانت نفسهُ تعبد هناك كما عبدت نفس اوسيرس من بعدهِ في الهيكل الذي اقامهُ سنوسرت الاول لعبادتها . وحيث ورد في الكتابات القديمة ذكر قبر اوسيرس فالمراد معبد نفسهِ كما انهم كانوا يقولون قبر رعمسيس وهم يريدون معبد نفسهِ لا القبر الذي فيهِ جسمهُ لان قبرهُ الحقيقي كان في وادي الملوك وقد عثر عليهِ هناك محنطاً ولم يدخل الى المعبد قط . واذا ذكروا ان رأس اوسيرس وحدهُ دفن في ابيدوس فمعناهم في ذلك على ما ارى ان عودة من العود التي كانت تُحنَّط على هيئة رأسهِ دفنت هناك مع تمثالهِ . وقد عثر على كثير من هذه الرؤوس او العود في القبور وكان اعتقاد المصريين انها تقي جسم الميت

ومؤسس هيكل اوسيرس هو سنوسرت الاول ثاني ملوك الدولة الثانية عشرة وابو رعمسيس الثاني . وكان هذا الهيكل في اول امرهِ رواقين بلا سقف ينحدر منهما الى دار يقوم سقفها على ثلاثة صفوف من الاعمدة . وتفضي هذه الدار الى سبع غرف مقببة تختص كل منها بمعبود والثلاث الشمالية منها تختص باوسيرس وايسس وهورس . ومن غرفة اوسيرس يدخل الى المعبد المختص بهِ وهو دار قائمة على عشرة اعمدة وفي جوانبها غرف كثيرة . وفي احد جدران هذا الهيكل الجدول المشهور الذي فيهِ اسماء الملوك من مينا الى سنوسرت الاول والثلاثين

من ابدع النقوش المصرية وبعضها ملون بالالوان الزاهية . وقد بنى رعمسيس الثاني داراً الى جنب دار ابيه ولكنها مثل كل ما عمله اي انها انجزت بسرعة ولم يدقق في اتقانها فالفرق كبير بينها وبين دار سني الاول . وكان اوسيرس يعبد في هذه الدور والغرف وتعبد فيها ايضاً الآلهة التي يسمح هو بادخالها في هيكله ويخصص لكل منها غرفة . ولكن اين هذه الغرف في غرفته الخاصة .

يجب ان تكون هذه الغرفة تحت معبده وذلك قياساً على ما وجد في القبر البحري . فقد اكتشف تحت هيكل منتوحتاب من ملوك الدولة الحادية عشرة غرفة متقنة البناء فيها مزار يشغل اكثرها مبني من المرمر وليس عليه نقش ولا كتابة . ووجد امامهُ قوارب عليها صور وقطع اسلحة خشبية ومنسوجات وبقايا من التقدمات التي كانت تقدم هناك . ولا يمكن ان يكون هذا المزار قبراً اذ لم يعثر فيهِ على تابوت وهو فوق ذلك لا يسع تابوتاً حجرياً ولو كان قبر ملك لوجب ان يسعهُ . فكان يرضع في المزار تمثال لاحد الملوك فيقدم لهُ انكهنة التقادم ويذكرونها على نصب حجري اما مومياء الملك فتوضع في غرفة مقفلة لا يدخلها احد . وقياساً على ذلك ارى ان نفس اوسيرس كانت تعبد في غرفة تحت هيكله

وقد عثرنا على مدخل هذه الغرفة وسنرفع الردم عنهُ في فصل الشتاء القادم ونصل الى الغرفة التي كانت نفس اوسيرس تقيم فيها على زعمهم . وارجح اننا لا نعثر على تحف نزان بها المعارض ولكن سنتمكن من حل معضلات كثيرة تاريخية وفنية ودينية

وحول هيكل اوسيرس في ابيدوس مقبرة كبيرة اكتشفت فيها انواع من القبور ومؤرخو اليونان يقولون ان هذا الهيكل هو قبر اوسيريس حيث دفن رأسهُ . فلا بد اذن من ان يكون ثمة قبر او معبد تعبد فيهِ روح هذا المعبود او روح ملك دفن جسمهُ في وادٍ بعيد عن المكان

وكان الاستاذ بتري قد كشف عن نفق بالقرب من الهيكل يفضي الى غرفة صغيرة . وعلى جداري النفق وجدران هذه الغرفة كثير من الصور والكتابات من كتاب الاموات واسم منفتاح بن رعمسيس الثاني . وفي آخر النفق عند مدخل الغرفة باب في جهة الهيكل وقد حفرنا الردم من هذا الباب فاذا هو مدخل نفق آخر طولهُ نحو ٤٥ قدماً وعلى جدرانهِ الى يمين الداخل الفصلان الاول والسابع عشر من كتاب الاموات وعلى الجدار الآخر

الفصلان الثامن والتسعون والمئة والسادس والثلاثون والاعتراف الثاني . ويظهر ان هذه الكتابات نقشت هناك بعد بناء النفق زمن لا حين بنائه . والكتابة التي على الجدار الايمن تقرأ من اسفلها صعداً . اما الكتابة على الجدار الايسر فاولها عند آخر النفق وتقرأ من اعلاها نزولاً

ولما وصلنا الى آخر النفق عثرنا على غرفتين واحدة الى اليمين واخرى الى اليسار ووجدنا ان يتهي بجدار سمكه ٢ اقدام يفصل هاتين الغرفتين عما وراءهما من الغرف في جهة الهيكل . وفي هذا الجدار عتبة كبيرة طولها ١٥ قدماً . وارجح ان البناء كان ظاهراً فوق الارض من بعض جهاته ومسنوداً بالرخام ومن فوقها الرمل حتى يصير منظره كمنظر مصطبة كبيرة

وقد اوقفنا احدى هاتين الغرفتين فاذا جدارها الشرقي محكم البناء من الحجارة الكبيرة يشبه بناؤه بناء الاهرام التي تنسب الى هيكل ابي الهول . ويظهر انه اقدم من هيكل ستي ولعله من بقية المعبد القديم اذ لا شك في انه كان هناك معبد في ايام الدولة الثانية عشرة ان لم يكن قبل ذلك والاّ فما معنى كثرة القبور هناك من عهد الدولة الثانية عشرة والدولة الثالثة عشرة . ثم كشفنا عن غرفتين وراء هذا الجدار وسنوالي البحث الى ان نصل الى تحت الهيكل وليس امامنا الآن انفاق بل غرف يفضي بعضها الى بعض

ولدينا مسألة لم نحل بعد وهي هل هذا المعبد هو اقدم معبد لاوسيرس؟ ولا بد من القول بانه كان هناك معبد مهم لاله عظيم في ايام الدولة الاولى والاّ لما بنى ملوكها قبورهم في ام القعاب

ولكن متى بدئ بعبادة اوسيرس في ابيدوس ومتى تغير اسمه من ابواتو الى اوسيرس؟ معنى ابواتو معبد السبل او الدليل وذلك كان اسمه لما كانت صورته شعاراً لمبدئه الفاتحين يجمونه في زحفهم الى الشمال . ومعنى اوسيرس من يضع مجلساً او مسكناً ولعل اسمه تغير من ابواتو الى اوسيرس عند ما بني معبده في ابيدوس . فاذا ثبت ذلك فان علينا معرفة السبب الذي من اجله اتخذ ملوك الدول الاولى ابيدوس مباءة لهم ولماذا يقال ان سيتا نشأ فيها . وقد ترضح لنا حفريات الشتاء القادم شيئاً عن ذلك ولكن علينا بالتحفظ في احكامنا وتوقّانا الآن